يسوع يفتح أذهاننا لنفهم الكتب

الأخت دولّي شعيا ر.ل.م.

مقدّمة

"حينئذٍ فتح أذهانهم ليفهموا الكتب" (لو ٢٤: ٤٥).

لا تشير هذه العبارة إلى الأنبياء الذين استخُدموا ليكونوا ناطقين باسم الله، بل إلى مؤمنين عاديّين، أو إلى الذين رفضوا الحقيقة. كما ولا تشير أيضًا إلى أناسٍ يملكون مواهب متفوّقة. في حين أنّ الآية المذكورة أعلاه هي من العهد الجديد، فالاصطلاح البيبلي يوجد كثيرًا في العهد القديم، حيث ينفذ الله إلى أذهان الناس (راجع خر ٩: ١٢؛ ١ صم ١٠: ٩؛ مز ١١٩: ٣٦). المبدأ الكتابيّ واضح جدًا: "الربّ معكم ما دمتم معه، إن طلبتموه وجدتموه وإن تركتموه ترككم" (٢ أخ ١٥: ٢).

لكن الكتاب المقدّس يقول بوضوحٍ أيضًا أنّ معونة الربّ لا تنفي جهدنا الذاتي. الكتاب المقدّس مليء بالإرشادات كي نسعى جاهدين وبكلّ حماسة لتعلُّم كلمة الله وحفظها. الله يعلم أننا بحاجة لمساعدته كي نفهم الكتب؛ لكنّه يعطينا إيَّها فقط إذا كنّا نرغب في الحصول على مساعدته، وإذا طلبنا منه المعونة وسعينا نحن أنفسنا للدخول في منطق الله.

إنطلاقًا ممّا سبق، سوف نرى أولاً كيف فتح الربّ ذهن تلميذَي عمّاوس في لو ٢٤: ١٣-٣٥، وثانيًا كيف يفتح الله أذهاننا اليوم لنفهم الكتب.

١. يسوع يفسِّر الكتب إلى تلميذَي عمّاوس

يختم لوقا إنجيله بلمسة فنّانٍ تاركًا لنا رواية تلميذَي عمّاوس، التي لا يوجد لها مثيل في الأناجيل الإزائيّة الأخرى. إنّها صفحةٌ مدَوِّية، تملك القدرة على إشراك القارئ في مضمونها بشكلٍ تصاعديّ، إلى أن ينتهي قائلاً مع بَطَلَي القصّة: "أما كان قلبنا مضطرمًا فينا، حين كان يُكلِّمنا في الطريق، ويشرح لنا الكُتُب؟" (لو ٢٤: ٣٢).

يبدأ لوقا الرواية محدِّدًا الحدث بين أورشليم وقرية عمّاوس، ويُنهيها بالعودة السريعة في الاتّجاه المعاكِس، أي من عمّاوس إلى أورشليم. بين حركتي الذهاب والإياب هناك مشهدين يشدِّدان على "السير مع يسوع" كرفيقٍ للسفر: "راح يسير معهما" (لو ٢٤: ١٥)، و"كان متكئًا معهما" (لو ٢٤: ٣٠).

١ . ١ من أورشليم إلى عمّاوس

قال لوقا بأنّ التلميذَين كانا سائرَين (ذاهبَين) في الطريق. فعل "سار" مليء بالمعاني، وهو خاصّ بلوقا، لأنّه يتعلّق بـ"الرحلة الكبيرة"، أي بحزم يسوع للذهاب إلى أورشليم (راجع لو ٩: ٥١: "صمَّم يسوع بعزمٍ أن يتوجَّه إلى أورشليم"). بذلك، يصوِّر لوقا الدعوة المسيحيّة كمسيرة (درب) خلف يسوع باتجاه أورشليم. لكن في بداية الرواية نرى التلميذَين يتركان أورشليم باتّجاه عمّاوس التي "تبعد نحو سبعة أميال (١٢ كلم تقريبًا) عن أورشليم. يبتعدان عن المدينة التي خذلتهم كليًّا: لا مشيح ولا عودة لإسرائيل. إنّها حالةٌ تصف المرارة المفرطة التي عاشها التلميذان.

لكنّ القائم من الأموات "يقترب منهما" و"يسير معهما" (لو ٢٤: ١٥). إنّه المسيح القائم الذي يأخذ مبادرة الاقتراب كي يصبح رفيق السفر، كاشفًا عن مجّانيّة اللقاء بين الله والإنسان. لكن لا يكفي أن يقترب يسوع كي يعرفه التلميذ. فالنظر بالعينين لا يكفي، لأنّ معرفة يسوع القائم تتجاوز الاختبارات السطحية لأنّها تتعلّق باختبار الإيمان. هذا ما نراه جليًّا في النقيضين التاليين:

<u>في البداية</u>   "أعينهما أُمسكَت عن معرفته"

<u>في النهاية</u>   "انفتحت أعينهما، وعرفاه"

يُبادر يسوع القائم بالكلام مبتدئًا بالسؤال: "ما هذا الكلام الذي تتحدَّثان به، وأنتما تسيران؟" (لو ٢٤: ١٧). كان لهذا السؤال وقعٌ مريع على التلميذَين حتّى "وقفا عابسَين" حانقَين. بعد ردّة الفعل الجسديّة هذه يأتي سؤالٌ معاكِس يؤكِّد على استغراب وجهل "من اقترب منهم" للأخبار الأخيرة. يسوع هو صُلب الموضوع، لذا يسألهما: "ماذا حدث؟"، معطيًا لهما الفرصة لتوضيح أفكارهما. هنا كليوباس ورفيقه يوجزان، في الواقع، النقاط البارزة لما حدث ليسوع في الأيّام الأخيرة (لو ٢٤: ١٩–٢٠)، ولخبر القيامة الذي بشَّر به بعض النساء (لو ٢٤: ٢٢–٢٣). يُلمِّح الحوار بين يسوع والتلميذَين إلى ارتباطاتٍ متنوّعة :

- الاسم (يسوع) وأصله (من الناصرة): راجع لو ١—٢
- رسالته (راجع لو ٤: ١٤–٩، ٥٠) "نبيًّا قديرًا بالقول والفعل" (لو ٤: ٣٢، ٣٦؛ ٥: ١٧؛ ٦: ١٩؛ ٧: ١٦؛ ٨: ٢٦؛ ٩: ١٩)
- موت يسوع وعلى من تَقَع المسؤوليّة : "كيف أسلمه أحبارنا ورؤساؤنا ليُحكمَ عليه بالموت وكيف صلبوه" (لو ٢٣)
- عدم وجود جسد الربّ في القبر (لو ٢٤: ٣)
- رؤية الملائكة والإعلان بأنّ يسوع هو حيّ (لو ٢٤: ٤؛ راجع أعمال ٢٥: ١٩)

- تأكيد الرسل (لو ٢٤: ٣٤)

في الواقع، يرى القارئ في رواية طريق عمّاوس صدىً للإعلانات المختلفة لحدث القيامة الموجودة في الفصل ٢٤ من إنجيل لوقا:

- الملاكان للنسوة (لو ٢٤: ٦)
- النساء للأحد عشر والباقين جميعًا (لو ٢٤: ٩-١٠)
- القائم لكل التلاميذ (لو ٢٤: ٤٤-٤٦)

في هذا الإطار المتكرّر لإعلانات القيامة، يظهر تصرّف التلميذَينِ غريبًا بعض الشيء. بدلاً من أن يذهبا إلى عمّاوس، كان عليهما أن يذهبا إلى القبر للتحقُّق من الخبر . لكنّهما لم يذهبا للتأكّد لأنّ الآخرين الذين ذهبوا "لم يروا يسوع" (لو ٢٤: ٢٤).

١. ١. ١ تفسير القائم من الموت

سمع يسوع التلميذَين إلى أن انتهيا ثمّ تكلّم منتقلاً من التوبيخ ("يا عديمي الفهم، وبطيئي القلب") إلى تأويل الكتب (لو ٢٤: ٢٥-٢٧). هنا يصل لوقا إلى محور الرواية، لأنَّ في سؤال يسوع يعودُ حافزٌ يُردّده الإنجيلي لوقا بتواترٍ كلازمة (راجع لو ٢٤: ٤٤-٤٦): "أما كان على المسيح أن يعاني تلك الآلام؟" (لو ٢٤: ٢٦).

لم يتكلّم يسوع مع التلميذَين إلاّ بما تنبأ عنه موسى والأنبياء، وبشكلٍ خاصّ عن آلامه. بالتالي، يصبح يسوع في آنٍ معًا "المفسِّر والتفسير" النهائيّ والأسمى للكُتُب. يسوع القائم هو المفتاح الحاسم القادر على "فتح" الكتب (راجع لو ٢٤: ٣٢) وإظهار معانيها. على ضوء تفسير يسوع، نرى أنَّ موته وقيامته لا يتعارضان مع المسيحانية التي كتب عنها موسى والأنبياء (راجع أعمال ٣: ١٨؛ ١ بط ١: ١١-١٢).

١. ١. ٢ "وعرفاه عند كسر الخبز"

اقترب التلميذان من القرية ويسوع "تظاهر بأنّه ذاهبٌ إلى مكانٍ أبعد" (لو ٢٤: ٢٨). لكن تمسُّك التلميذَين به، يعكس روح الضيافة الشرقيّة، ويشفُّ في الوقت عينه عن روحٍ كنسيّ ذات بعدٍ ليتورجيّ غالٍ على قلب لاهوت القدّيس لوقا: "أمكث معنا، فقد حان المساء ومال النهار. فدخل ليمكث معهما" (لو ٢٤: ٢٩).

أصبح يسوع القائم ضيف التلميذين. داخل البيت، وفي إطار الشراكة الكنسيّة، وعلى ضوئها، تتضّح علامات القيامة (لو ٢٤: ٣٠-٣١). فِعلُ يسوع فريدٌ من نوعه، تحتفل به الجماعة "لذكره" وتنفتح عيناها لمعرفة

الرب. إنّه الفعل الذي يعيدها إلى الآلام. "وعرفاه عند كسر الخبز"، أي عند الفِعل الذي يذكِّرهما بالعشاء الأخير وبآلام الربّ.

١. ٢ من عمّاوس إلى أورشليم

عندما "انفتحت أعينهما" (لو ٢٤: ٣١)، أصبحا قادرين على أن يرياه، لكنّه "توارى عنهما". عرفاه! في الوقت الذي فيه انفتحت أعينهما، أصبح يسوع لا منظورًا، لأنهما اختباراه حيًّا في حياتهما. العلامة السريَّة (الإفخارستيا) جعلتهما يعرفانه. لَقِيا مِن جديد دفء الرجاء وقوّة "القيام في تلك الساعة عينها" (لو ٢٤: ٣٣) ليعودا إلى أورشليم ويُخبرا "بما حدث في الطريق، وكيف عرفا يسوع عند كسر الخبز" (لو ٢٤: ٣٥؛ راجع أعمال ٢: ٤٢؛ ٢٠: ٧، ١١).

يتعلَّق تفسير الكُتُب بـ"لاهوت الصليب". لذلك تستند آلام يسوع إلى دليلٍ كتابيّ من العهد القديم، وتنضمّ إلى قافلة النصوص التي تبيِّنُ سرّ المخطّط الإلهي، أي تاريخ خلاصنا.

٢. يسوع يفتح أذهاننا نحن لنفهم الكتب

بمجرد أنه أعطانا الكتاب المقدس، ساعدنا الله كثيرًا. عندما يُحوِّلُ الكتاب المقدّس أذهاننا، هذا ليس نتيجة لأعمال الإنسان إنّما هو فعلُ الله. بواسطة كلمته، يغيّر الله عقولنا وسلوكنا؛ من خلال قوّة وحيه، يملأ حياتنا رجاءً، ومحبّةً، وسلامًا، واستقامةً.

من المهمّ جدًا أن ندرك ذلك. كلمة الله تعلّمنا ما هوحقّ ولكنّها تفعل أكثر من ذلك. فالأفكار مُقدَّمة والأمثال مختارة بحيث يكون لها تأثيرٌ قويّ على أذهاننا. إضافةً إلى ذلك، كلَّما تأمَّلنا بكلمة الله وسعينا للعيش بما يوافقها، نفهم بشكلٍ أفضل ما يحاول الكتاب المقدّس أن يقول لنا: "كم أحبُّ شريعتك، أتأمّلها نهارًا وليلاً. وصيَّتك لا تفارقني جعلتني أحكم من أعدائي. أنا أعقل ممَّن علَّموني، لأنِّي أتأمّل فرائضك، وأكثر من الشيوخ فهمًا، لأنِّي أحفظ أوامرك" (مز ١١٩: ٩٧-١٠٠).

قراءة وتأمّل الكتاب المقدّس يساعدانا على فهمه. يقول صاحب المزامير: إن أطعنا الله، هذه الطاعة سوف تساعدنا على تعميق فهمنا لكلمة الله. والفهم العميق عليه أن يساعدنا على الامتثال بشكلٍ كامل، الذي بدوره يؤدّي بنا إلى فهمٍ أكثر عمقًا وإلى طاعةٍ أكثر كمالاً.

من هنا نستخلص أن الكتاب المقدس ضروريّ اليوم كي ندرك أن الله يعمل من خلال كلمته. عندما انتهى الكتاب المقدّس، أرسل الله إلى خدّامه "ما هو كامل" (١ قور ١٣: ١٠). لن يتكلّم من بعد من خلال الأنبياء

الملهمين كما كان قد قاد شعب إسرائيل من قبل. ولن يقدّم مواهب الروح القدس التي أعطاها سابقًا لكنيسة العهد الجديد. الآن أعطانا الله الوحي الكامل لمقاصده ومبادئه، وهذا الوحي يرد في الكتاب المقدّس.

إنّه لأنفع أحياناً اقتناء الكتاب المقدس من سماع كلمة الله من فم نبيٍّ مُلهم، لأنّه حتّى الأنبياء أنفسهم لم يفهموا تفاصيل الإنجيل من حيث كتابتها (١ بك ١: ١٠–١٢). والكتاب المقدّس بكامله هو أكثر فائدة من حيازة مواهب خارقة العادة، لأنّ كلّ مؤمن الآن يكنه أن يفهم رسالة الله الكاملة، ويجدها في هذا الوحي الفريد والكامل (١ قور ١٣: ٩–١٢).

إن مجرّد التوصّل إلى فهم كلمة الله، يوصف في الكتاب المقدّس كعمل الله الذي يفتح أذهاننا. يوم قيامته تكلّم الربّ يسوع مطوّلاً مع اثنين من تلاميذه، "شرح لهم ما جاء عنه في جميع الكتب المقدّسة، من موسى إلى سائر الأنبياء" (لو ٢٤: ٢٧). ففرح التلميذان لأنّ يسوع فتح لهم الكتب (لو ٢٤: ٣٢). لم يفرحا لأنّه فتح الكتاب المقدّس في حضورهم، إنّما لأنهما يفهمان قصد الله في ما يتعلّق بالمسيح.

التقى يسوع في تلك الليلة نفسها مع آخرين من أتباعه المؤمنين مردّدًا البيان الذي أعطاه سابقًا لتلميذَي عمّاوس، كي يفهموا الكتب (لو ٢٤: ٤٥). لم يفتح يسوع أذهانهم زارعًا المعرفة في عقولهم بطريقةٍ خارقة، إنّما شارحًا لهم قصد الله بما يخصّ موته وقيامته، وقائلاً لهم بأنّ الإنجيل سيُبشَّر به للوثنيّين ولليهود على حدٍّ سواء (لو ٢٤: ٤٤–٤٧).

عندما نقرأ عرض هذه المواضيع نفسها في العهد الجديد، يفتح الربّ أذهاننا تمامًا كما فتح أذهان الرسل. يمكننا أن نرى أنّه كان أسهل بالنسبة إليهم مما هو لنا، لأنّ الربّ كان معهم وهو نفسه يفسّر لهم الكتب. لكن، في الواقع، كان أصعب بالنسبة لهم. مثلاًً، على الرغم من شروحات يسوع، اتّخذ بطرس الرسول سنوات عديدة ليفهم أنّ الوثنيّين سيُقبَلون في الكنيسة على غرارِ اليهود (أعمال ١٠). نحن ليس لدينا أيّ مشكلة من هذا النوع لأنّ لدينا الكتاب الكتاب المقدّس كاملاً، الذي يفسِّر هذه المسألة. هكذا يفتح الله أذهاننا من خلال كلمته.

بالتأمل في كيفيّة عمل الله من خلال كلماته التي تتكيّفُ مع كلِّ الظروف، يمكننا أن نفهم لماذا يستعمل أساليبَ متعدّدة ونادرًا ما يتدخّل بشكلٍ مباشر في أفكارِ وعاطفة أحد. الله يريد منّا أن نقوم بجهدٍ شخصيّ لنخدمه، ويرغب في أن نخدمه إن نحن أنفسنا قد قرّرنا ذلك بملء إرادتنا. عاملاً بهذا السبيل، يساعدنا الله ويقودنا، ولكنّ ذلك لا يلغي الحاجة أن نقوم نحن بدورنا تجاهه.

خاتمة

ذكّر يسوع التلاميذ بالكتب، وفتح لهم أذهانهم كي يفهموها. أشار إلى مهمّتهم كشهودٍ له، ولكي يستطيعوا القيام بها، وعد بقوةٍ من العلاء تأتي مع فيض الروح القدس.

فتح الذهن البشري، لفهم معنى التعاليم الكتابيّة، ليس بمتناول الإنسان وحده. هناك حاجة إلى تدخلٍ من عَلو. فمن غير المجدي أن أحفظ الكتاب المقدّس عن ظهر قلب دون أن تكتسي الكلمات فيَّ حياةً أبديَّة. من هنا مهما توصّل الفهم العقلي أن يكون فطنًا، ليس لديه أيّ مفعول بالمقارنة مع الوحي الإلهي.

مهما عظُمت الكلمات البشريّة تبقى محدودة، يستخدمها البشر للاتصال. أمّا الله فلديه أعماقٌ ومرتفعات نحن لا ندركها. فقط عندما نريح الذهن وننفتح كي نتخطّى القيود البشريّة يمكن أن نرى وجهات النظر والمساحات تكشف عن تعاليم الكتاب المقدّس.

مع هذا الانفتاح العقلي، يستعدّ الإنسان إلى قبول نعمة الروح القدس، الذي يتدفّق بفيضٍ وبقوّةٍ عظيمة كي يروي النفس الظمأى.

ما من قاعدةٍ تحدِّدُ كيفيَّة الوصولِ إلى هذا الانفتاح الذهني. رافق التلاميذ يسوع لسنواتٍ عديدة وشاهدوا موته على الصليب وكان عليهم أن ينتظروا حتّى العنصرة. كورنيليوس، بيد أنّه لم يكن يهوديًّا، حصل على هذا الانفتاح قبل العماد في الماء. ونحن نعلم أنّه من المهمّ أن نسأل الروح القدس (لو ١١: ١٣).

لنقترب إذًا بتواضعٍ عميق، ولنقترب من ربّنا ونسأله انفتاح الذهن الذي يخوّلنا أن نفهم عمق وعُلوّ كلمته. ثمّ ننتظر هادئين وسعيدين حلول هذه القوّة الخاصّة، القوّة من العلاء، واثقين أنّ الربّ يفي دائمًا بوعده.